الدكتور زكى المحاسنى
فى اخوانياته

للشاعر الاديب
الاستاذ محمد عبد الغنى حسن - مصر
عضو مجمع اللغة العربية فى دمشق
والمؤلف الكبير فى السيرة والأدب

لن أتعرض هنا للنواحى العامة فى حياة فقيدنا المرحوم الدكتور زكى المحاسنى، فان أعماله فى التدريس بكلية الآداب فى جامعة دمشق ثم لبنان والسعودية وفى وظيفته المرموقة التى كان فيها سندا وعضوا لكل قاصد من السفارة السورية بالقاهرة، وفى وزارة التربية والتعليم، وفى محاضراته ومؤلفاته المشرقة الرائدة، لا تحتاج الى تعريف بها، أو وصف لها، لأن آثارها ماتزال ناضجة باقية. ولكننى سأتناول فى هذا الفصل من النواحى الانسانية عند الباحث الشاعر الدكتور زكى المحاسنى، وهى ناحية «الاخوانيات» التى ازدحمت بها حياته فى السنوات الاخيرة، والتى كانت تدل على وفاء من هذا الرجل قل ان نجده فى أبناء هذا الزمان.

وقد لوحظ بأخرة من الزمان أن الدكتور زكى المحاسنى قد أسرف فى الإخوانيات وأطال فيها وأكثر منها الى حد خشى معه النقاد أن

يصرفه ذلك عن البحث الأدبى الاصيل، وأن يشغله عن الدراسات الأدبية الرصينة التى قد تتضاءل أمام قيمتها العلمية هذه المجاملات التى كان يوزعها الفقيد بكرم وسخاء. فقد لاحظ الأديب الناشئ حسين على محمد كثرة هذه الاخوانيات (المحاسنية) وتكرار بعضها، فوجه الى الفقيد رسالة من خلال عام ١٩٧١ يقول فيها: (فى كل عدد من أعداد الأديب الزاهرة تطالعنا بقصائدك الاخوانيات، بل تكرر فى أحيان كثيرة ما سبق نشره، مثل قصيدتك الموجهة لميخائيل نعيمة... إننا ننتظر مقالاتك القيمة وبحوثك الشائقة فى الأدب العربى... فبالله لا تجعل «الاخوانيات» تطغى عليك...)

وقد كان أغلب الظن أن يغضب الدكتور زكى المحاسنى لهذه الملحوظة يبديها أديب شاد من شداة الأدب فى مصر، ولكنه على الفور رد على الأديب المصرى ردا جميلا ثم أهدى اليه على سبيل الهدية نسخة من كتابه (أبو نواس شاعر من عبقر) ثم شفع الرد والكتاب بأبيات (اخوانية) يوجه فيها الكلام الى صاحب الملحوظة قائلا:

حسين! أنت جمعت الفضل قاطبة
«محمد وعلى» فيه كالشهب
لسوف أترك إخوانية ذهبت
بالوقت والفكر دون البحث والأدب!

فكان هذا الرد الشعرى الطريف دليلا على تأصل الروح الاخوانية عند الفقيد...

وأغلب إخوانيات الدكتور زكى المحاسنى مصبوبة فى القالب الشعرى، وقد كانت سهولة النظم عند المحاسنى ومطاوعة القوافى له تدفعه الى أن يتخير لاخوانياته الكثيرة هذا الضرب من الكلام الموزون المقفى. وهو هنا متأثر بالطبع بشعراء العروبة على مر العصور فى شعرهم الاخوانى الذى كان يحتل قسماً ليس بالضئيل من دواوينهم. ولكنه فى بعض حالاته كان يلجأ الى النثر من اخوانياته. ولعله أراد بهذا أن يتحلل من الالتزام بدرب واحد، أو لعله أراد أن يغاير فى إخوانياته بين النظم والنثر ليثبت قدرته على التعبير فى المجالين.

وكثيرا ما كان يجمع المحاسنى فى الاخوانية الواحدة بين النثر والشعر معا، وكأنه يريد بذلك أن يمهد بالعبارة النثرية المرسلة ما لا يستطيع أن يعبر عنه النظم المقيد. ففى تحية منه الى الاستاذ ألبير أديب صاحب الأديب ورئيس تحريرها تصادفنا التحية الاخوانية الآتية: (أخى الحبيب الاستاذ العظيم ألبير أديب. أعزك الرحمن.

لقد وجدتنى فى ثبت الكتاب فى مجلتك الزاهية لعامها التاسع والعشرين، الفائز الاول فى عديد ما كتب فيها. فقد جاء الى جانب إسمى اثنان وعشرون موضوعا، ولم يبلغ هذا المبلغ مثله أحد من اخواننا الاعلام من كتاب «الأديب» فى عامه هذا. ولو كان للاديب العزيز جائزة سنوية لفزت بها، لا بالتعديد،وانما بالتجويد! وأستغفر ربى! فما كنت مكاثرا بشئ ولا تياها، فربما كان موضوع واحد من أجواد الأديب يعدل عديدى، ويفوق جديدى.

وجاشت النفس بهذه الأبيات لمجلتنا التى عشنا على أدبها ولم نتحول فلها الهناءة فى عامها الجديد (١٩٧١) ثم أعقب ـ رحمه الله ـ هذا التمهيد النثرى الموضح لظروف التحية بالأبيات الاخوانية التى يقول فيها للاديب وصاحبه:

قل للاديب وعين الله ترعاه
أقمته أدبا يعلو به الجاه
فأنت «جامعة» تسعى روائعها
من كل قطر له فى العرب مغناه
إن قيل «مدرسة الفكر» كنت بها
مريدها، وبها لفظى ومعناه
لها التهانى فى عمر تكون به
كمهدها عالما فاقت مزاياه
كنابغ من بنى ذبيان قلت لها
وعد لبنان قد زادت عطاياه
ألبير؟ أنت كشمس غير حاجبة
لدى السطوع كنجم شع ـ مسراه
لعشت فى دولة الافكار مشرقها
تزداد عمرا بمجد طاب رياه

واذا لاحظنا فى هذه التحية الاخوانية للاديب وصاحبها الجمع بين النثر والشعر، فاننا نجد المحاسنى فى تحية الى الاستاذ الفولكورى المحامى عبد القادر عياش بمناسبة صدور كتاب له عن مدينة «الرقة»

يلجأ الى النثر وحده فيبعث الى هذا المؤلف الخصب الانتاج فى الأدب الشعبى بتحية نثرية موجزة يقول فيها مخاطبا صاحبه: (ولو ألفٌ عالم عربى أو فرنجى موسوعة حديثة للمدن والاقاليم فى دنيا العرب لجاء بحثك فى «الرقة» مثال قصده، ومحط علمه. ولعل روح الجغرافى العظيم ياقوت فى معجمه البلدانى قد سرت اليك روحه بالعبقرية، حتى رحت أتخيل أنه هو ذاته يتلهف على أن يكون قد جاء فى هذا العصر، وكتب عن «الرقة» مثلما كتب من قديم الزمان حتى يومنا الحديث).

على أن تحية إخوانية أخرى للدكتور زكى المحاسبى قد ارسلها الى المرحوم العلامة قدرى حافظ طوقان حول (الاستقصات) الاربعة المعروفة عند القدماء، وهى الماء، والهواء، والنار، والتراب. وقد زاد عليها المحاسنى عنصرا خامسا وهو: الانسان..

ومن اخوانيات زكى المحاسنى النثرية تحية للاديب الاستاذ سعد صائب بمناسبة صدور كتابه أو ديوانه عن (الأم) الذى نقله الى لغة العرب (بتعبير كريم، وأداء سليم).

ويبدو ان المحاسنى لجأ الى لغة النثر من هذه الاخوانية لينطلق الى الحديث عن الشاعر البلجيكى موريس كايم الذى مجد أمه فى ديوان خاص، وليستحضر ذكر الشاعر البلجيكى الآخر موريس مترلنك: (الذى دخل الى فؤادى ولم يخرج منه حتى الآن باحتلال شعرى) كما يقول زكى المحاسنى. كما لجأ الى النثر أيضاً ليجد المجال واسعا

فى التعبير عن مواجده بأمه ـ رحمها الله ـ التى كثيرا ما كان يشير اليها والى صلواتها ودعواتها، والتى يقول فيها من هذه الاخوانية الصائبية: (روحت بعد ان فقدت أمى منذ أكثر من ثلاثين عاما ألوب عليها، وافرك جفونى قبل النوم على أراها. لكن خيالها الحبيب غاب عنى وأستعصى منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وما عدت أراها فى نومى ولولا صورتها، وحدة خيالى فتمثلها لعددت يتمى شكلا ران على فؤادى).

وقد يكون الجمع بين الشعر والنثر فى اخوانيات زكى المحاسنى على قدر متساو بينهما فى الطول والنفس، فللنثر مثل ما للشعر فى احدى اخوانياته من قدر وطول، حتى لكأنه ـ رحمه الله ـ كان يفصل كل ثوب منهما على صاحبه. ولكنا نجده أحيانا يطيل فى النثر، ويحلو له الكلام فيه، فيكثر التحية نثرا الى أن تقارب ختامها، فيختمها ببيت واحد أو بيتين من الشعر، كما فعل فى اخوانيته الى الاديب المغربى الاستاذ عبد الله كنون حين اهدى اليه نسخة من كتابه «لقمان الحكيم» المطبوع بدار المعارف بمصر. ففى هذه الاخوانية يستطرد زكى المحاسنى ـ كعادته ـ الى ذكريات له مع أديبنا المغربى اللامع، والى ذكريات أخرى له مع وزير المعارف فى مصر نجيب الهلالى باشا، والدكتور طه حسين، ويخلص من هذا الاستطراد الى مدح صديقه عبد الله كنون ووصفه بأنه (درة الآداب وتاجها، وموئل المجمع اللغوى فى مصر والشام)، ويختم هذه

الذكريات النثرية ببيتين اثنين لا غير فى مدح الاستاذ كنون يقول فيهما:

لئن طلعت شمس الكواكب فى الشرق
فشمسك فى الآداب تطلع فى الغرب
كذا زين الانسان فى الكون صنعه
فيا باقع التأليف والفكر فى الغرب

ومجالات الاخوانيات عند الدكتور زكى المحاسنى تتسع باتساع المناسبات التى تفرضها، والظروف التى توحى بها وتمليها.. فهو تارة يحيى أخا له بمناسبة صدور كتاب له، وكأنه جعل تلك التحايا فرضا لا يتخلى عنه، ولا يرتاح حتى يؤديه. وسواء أكان الكتاب المؤلف الذى يستقبله المحاسنى شعرا أم نثرا أم بحثا أم رواية أم كتابا علميا، أم دراسة فى أى باب من أبواب المعرفة. فاذا ظهر كتاب للاستاذ الباحث الشاعر العراقى هلال ناجى عن (الشاعر الزهاوى) رأيت المحاسنى يحييه بأخوانية تبلغ أبياتها عشرين بيتا، يقول فيها:

يا هلالا ناجيته بخيالى
عاش ملء الفؤاد، عف الوصال
أسمع العذب فى لغاه بلفظ
فيه لحن العراق حلو المثال
فى ضفاف النيل التقينا على
شعر وفكر فكان زين احتفال

ايه ناجى: حفظت دكرى الزهاوى
والزهاوى مربب الاجيال
أنا أسمعته عشية حفل
مجمع الشام شاده للمعالى
كنت فى العنفوان والشرخ أروى
شعره الحر فى فدا الأبطال

واذا صدر ديوان «حصادالذكريات» للشاعر الاديب عبد الله يوركى حلاق رأينا زكى المحاسنى يستبق الى استقباله وتحية صاحبه بأبيات إخوانية يقول فيها:

يا حصاد الذكريات
أنت لملمت حياتى
إيه عبد الله يوركى
أيا زين الرواة
عشت ترعى «الضاد»
فى العز لدى العرب الاباة

واذا صدر كتاب «أدبنا الضاحك» للاستاذ عبد الغنى العطرى نرى الدكتور المحاسنى يسرع فى تحيته بكلمة نثرية طويلة بعض طول ـ على غير ما عودنا فى تحياته القصار ـ يسارع فيها بذكرياته الى أدب الجاحظ الذى أمتلا ضحكا ومرحا ثم يعرج على فن الضحك عند الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون، ثم ينتقل الى ذكرياته عن

استاذه الفيلسوف «سعيد البحرة» الذى سمعه المحاسنى يقول: «الضحك يمسد الاعصاب» ثم يعقب على هذه الخاطرة العابرة بقوله: (وكانت تذكرنى كلمته هذه بأم فائق، وهى جارة لنا عرفتها وأنا طفل يتيم دون العاشرة، فكانت زوج عمى، المبعدة عنى أمى، اذا أصابنى هزال أو حرارة جسم أخذتنى الى تلك الجارة، فطرحتنى على ظهرى، وكشفت عن بطنى، وجعلت تدلكه بزيت من عندنا فيه نعناع وتقول: لقد مسدت معدته: فلما سمعت استاذنا البحرة يقول: «الضحك يمسد الاعصاب آمنت بمفهومه العجاب...»

واذا ظهر ديوان شعر باللغة الفرنسية للشاعر اللبنانى هكتور خلاط، رأيت الدكتور زكى المحاسنى يرد الهدية بأحسن منها. فيهدى الى الشاعر خلاط نسخة من كتابه «أبو نواس شاعر من عبقر» ومعها أبيات اخوانية للشكر على الهدية يقول فيها:

أيا شاعرى هكتور يابلسم الدنيا
لشعرك آيات تبادلنا النجوى
لك «الفرحة» الباقى هواها على المدى
كأن ابتسامات الحظوظ بها تشرى
أيا مشعلا للحق والخير، والوفا
فديتك لوعمر بعمر أخ يفدى...

واذا أصدر الاديب محمد رؤوف بشير مجموعة من القصص بعنوان «رحلة الخفاش» رأينا المحاسنى يستقبلها بأبيات يعقد فيها بين الناس والخفافيش ويقول فيها:

من «رحلة الخفاش» رمز الناس

من مأتم يسعون للاعراس

هم شابهوه بشكله، وبطبعه

ومطافه فى الليل كالحراس

لكنهم لم يملكوا راداره

فنبا بهم ما رق من احساس...

وهكذا ننتقل فى إخوانيات زكى المحاسنى المتعلقة بصدر المؤلفات، من روضة الى روضة. وان كنا لا نعدم له شعرا اخوانيا أو رسائل اخوانية من مناسبات اهداء أخرى غير اهداء الكتب التى يصب فيها المؤلفون نفحات عقولهم... فحين اهدى اليه الاديب الباحث العراقى الدكتور صفاء خلوصى صورته الفوتوغرافية رد صاحبنا على هذه الهدية بأبيات أخوية يقول فيها:

يامهديا لى صورة للقائى

إنى وجدت بها مثال صفائى

لولا الخيال ورسم أحباب لنا

لرمى البعاد ودادنا بجفاء

خلف الجفون جمعت أشكال الرؤى

فى صورة الأحباب والخلطاء

سجلتهم فى القلب فى «ألبومه»

يفتر عن وجد وعن سراء

وشعر المحاسنى من الاخوانيات يتدفق فى أية مناسبة مهما صغرت... وسواء حضرت المناسبة أم استحضرها هو ليقول فيها ما يريد أن يقول.. فلقد شاءت الظروف أن يعود أخونا الاديب اللماح «وديع فلسطين» الى مصر بعد أن ضاقت به ليبيا بصمت تجلله الدهشة، ولكن الدكتور زكى المحاسنى استقبل هذه «العودة» الجبرية بأبيات من اخوانية يقول فيها:

عاد الهزار الى منابعه
فقل السلام على سواجعه
قد كنت شط النيل أنشده
شعرى وأمرح فى مرابعه
لى فى ربى الأهرام فيض هوى
قد راح يغرينى بنابعه

واللطف فى اخوانيات زكى المحاسنى أن الواحدة منها تجمع فى سمطها بين أكثر من أخ واحد. ففى أخوانية له الى الاديب الباحث أنور الجندى يعرج ـ كرماً منه رحمه الله ـ على محمد عبد الغنى حسن وشعره وأدبه، وعلى وديع فلسطين واغترابه فى ليبيا، وعلى الشاعر محمد طاهر الجبلاوى، وعلى عباس محمود العقاد، فيقول مخاطبا صديقه أنور الجندى:

كيف «عبد الغنى» ذو الحسن إذا
لـنـراه أديـبـنا العـلامـا

أنا شاهدته على قمة الأهرام
نسرا محلقا، مقداما
شعره العبقرى منحة الهام
يطوف البلاد، يطوى الشاما
«وديع» أخو «فلسطين» كانت
لهفات منه تفوق الوئاما
فاحتوته ليبيا غريبا، وحيدا
أين آدابه وأين الندامى؟
وعلى النيل من جبابرة المجد
هداة عرفت فيهم كراما
«فلطه حسين» عينى، «وللعقاد»
قلبى لو استطعت مراما
وإذا شمت «طاهر الجبلاوى»
فأقره من مشوق ود سلاما

وفى اخوانية الى الاستاذ وديع فلسطين اثر عودته الحتمية من طرابلس الغرب يجمع فى السمط بين ولده «باسل»، وابنته «هناء» حرسهما الله. وفى اخوانية الى الدكتور صفاء خلوصى يضم الى السمط الاديب العراقى اللامع الاستاذ وحيد الدين بهاء الدين، وهكذا حتى لتكاد (الاخوانية) من شعره ـ أو نثره ـ مجمعا وملتقى لعدد من الاخوان ممن يصفيهم الود، ويكن لهم الحب والتقدير.

ويلفت نظرنا فى اخوانيات زكى المحاسنى ولعه الشديد بطائفة من المحسنات البديعية، حتى لا تكاد تخلو منها اخوانية واحدة.

ولعل آخر ما كان بينى وبين اخى المرحوم الدكتور زكى المحاسنى من شعر اخوانى هو تلك القصة التى حبك القدر الذى لا مفر منه خيوطها بإحكام عجيب فقد طالعنى الاخ الاستاذ وديع فلسطين ذات يوم من أيام الربيع سنة ١٩٧٢ بنبأ تعيين زكى المحاسنى عضوا بمجمع اللغة العربية فى مصر تقديرا منه لما اشتهر به من علمه وأدبه وحفاظه على لغة الضاد، واستدراكا لما أخطأه من انصاف الزمان له. وسرنى النبأ سرورا كثيرا، وكتبنا اليه رسالة موجزة اهنئه فيها بهذه العضوية الكريمة أذكر منها قولى: (على كل حال لقد زنتم العضوية، وشرفتم الزمالة المجمعية، فكسب بكم أكثر مما كسبتم منها، وربحت بوجودكم فوق ما ربحتم منها فبمثلكم يا أبا الشموس المضيئة، والوجوه الوضيئة تهنأ المجامع، وتشرف المحافل. لذلك لا أهنئكم بالمجمع، ولكن أهنئ المجمع بكم. وما كثير عليك أيها الصديق القديم هذا التكريم الذى صادف أهلا، ووافق محلا، وأصاب موضعا. حفظك الله للادب والعرب، وأدام علينا نفحاتك من الشعر، ولمحاتك فى النثر، ورعايتك للاخوان، وتحفيك بالاصدقاء، وأسمعنا دائما من ملاحمك وملاحنك ما تطرب به الاذن، ويهفو له القلب، وتعتز به العروبة، ويعتد به الاسلام...)

وما كادت تبلغه رسالتى هذه حتى بعث الى بأربعة أبيات فهمت منه انه كتبها وهو طريح الفراش، صريع العلة يقول فيها:

ياشاعرا فى قمة الهرم
روحى فداك على المدى ودمى
هنأتنى بالمجمعى، ولى
حب بمصرِ مزاحم حرمى
إن يهف قلبك قلت معلمة
آدابها خفاقة العلم
من نيلك المحبوب كاس صفا
تروى ليوم الموت طى دمى

وما كادت أبياته الوفية هذه حتى وجدتنى أرد عليها بهذه الأبيات:

أتحفتنى بروائع الكلم
يا فكرة فى خاطرى وفمى
هذا مكانك غير مزدحم
فى مجمع بالفضل مزدحم
الخالدون دعاك مجمعهم
فاجبت سباقا الى الكرم
نم الأريج على فضائلكم
والفضل يشى غير متكتم

آثار علمك غير خافية
ودليل فضلك غير متهم
لك فى سباقك للعلا قدم
سباقة، خواضة القمم
والله ما كذبت فراستنا
فى الصاحب المختار من قدم
كانت حواضره تبشرنا
بغد على الآفاق مبتسم
تجرى العروبة فى مفاصله
جرى الندى فى أسمح الديم
لك سيرة فى كل مجتمع
فى الشام، فى الاهرام، فى الحرم
أما الوفاء فأنت صاحبه
يا حافظاً للعهد والذمم
لست المهنأ باختياركم
إنى أهنئ دولة القلم

وما كنت أعلم بعد هذا أن القدر يخبئ لصاحبنا شيئا، وأن أبياته وأبياتى الاخوانية السابقة قد شاء لها الله أن تنشر فى مجلة (الاديب) فى العدد الذى يرثيه فيه بدموع الوفاء حفنة من كرام الشعراء والادباء. رحمه الله وجزاه عن الادب واللغة والعروبة خير الجزاء.